الافتتاحية

كنا صغارًا، نحمل ألواحاً أثقل منا وزناً، كتبت عليها آيات من كتاب الله عز وجل. نسير في اتجاه المسجد النبوي الشريف، نمر بحارات وأسواق، ولا نعبر بوابة باب المجيدي - وهي رابع بوابة لسور المدينة من الجهة الشمالية - إلا ونواجه بجدار الحرم وشبابيك الكتّاب مشرعة؛ وهنا نصاب بحالة اكتئاب، ومع ذلك كنا نسارع الخطى لنشرب من الحوض الصغير الذي تخمّر طوال الليل، إنه محو الألواح القرآنية، نشعر بأن في هذا المحو بركة القرآن الكريم، ما يسهّل الحفظ؛ ثم يبدأ التسميع على ثلاثة شيوخ؛ أحدهم العريف محمد بن سالم، وهذه شهرته، والشيخ عبدالحميد المصري، والشيخ محمد صقر، عليهم جميعًا رحمة الله ورضوانه.

كان العريف بن سالم هو شيخ الكتّاب، وكنا نمضي اليوم كاملاً حتى صلاة العصر. كان الشيخ يرفع صوته والحجاج يدخلون لصلاة الظهر، فنفهم من ذلك الصوت أن أرفعوا أصواتكم بالقرآن لنلفت نظر الحجاج إلى وجودنا، فيدخلون ويفرقون علينا هللات نفرح بها ونجمعها. أما الشيخ، فبعد أن نتغدى بما أحضرناه معنا في تلك القفف الصغيرة المزينة بألوان شتى من خيوط صوفية، وكان الغذاء يتكون - عادة - من نصف شريكة، وحفنة من الرطب في الصيف أو التمر في فصل الشتاء. ينام الشيخ بعدها نومة القيلولة، ونتناوب على الترويح عليه، ويؤذن للعصر؛ فيأتي الفرج وننصرف، وكأننا خارجون من سجن؛ وإن كنا عادة نروّح عن أنفسنا عندما نذهب إلى الحرم لتجفيف الألواح حيث نعرضها للشمس، وهناك نجدها فرصة للعب، ويأتي الأغوات - وهم حراس الحرم آنذاك - ويجرون خلفنا، محاولة منهم لعقابنا، لما نسببه من فوضى في مؤخرة المسجد، وعندما تجف الألواح، نعود إلى الكتّاب ونبدأ في كتابة الدرس الجديد.

ما أن نعود إلى البيت، إلا وتطلب مني والدتي رحمها الله، أن أفسخ الثوب لكي تنظفه مما علق به، وهكذا بقية الملابس، نخرج بعدئذ إلى الزقاق، والزقاق لا يعني هنا الحارة، التي يمشي فيها الناس جيئة وذهابًا، وإنما تعني ما هو خارج البيت وهذه فرصة أخرى للعب بنين وبنات ألعابًا تناسب الجنسين، ولا تختبىء الفتاة إلا عندما تظهر عليها معالم الأنوثة، ولذا فإن الشاب يعرف مبكرًا كل بنات الحي وما يترتب على ذلك من أشياء مشروعة.

تلك مرحلة لها من الرواسب في النفس والعقل الشيء الكثير، وما أزال أختزن ما يملأ أحمالاً من الصفحات، ولكن الذي يمكن أن أذكره، هو أنني قد طابت نفسي مرة من الكُتّاب، فرميت اللوح على ناصية الطريق إلى الكتّاب، وكلما سُئلت عن اللوح أقول لا أدري لعله سُرِق، وفي كل يوم أمر فأراه دون أن يمسه أحد، وفي النهاية أخذته والأمر لله.

ومرت الأيام، ودخلت مدرسة العلوم الشرعية، وهي مدرسة أهلية ولم أطل البقاء فيها، ومنها إلى المدرسة الناصرية وهي مدرسة حكومية. ولم تكن هناك إلا مدرسة حكومية أخرى هي مدرسة النجاح، ومن هاتين المدرستين خرجت أفواج من شباب المدينة، من يرغب منهم في المرحلة الثانوية يسافر إلى مكة المكرمة ليدرس فيما يسمى بتحضير البعثات، أي الشباب الذين يؤهلون للسفر إلى الخارج؛ ثم فتحت ثانوية في المدينة المنورة، ومعهد علمي سعودي تابعان لوزارة المعارف.

ورغمًا عني دخلت المعهد العلمي السعودي، ولكوني تخرجت منه وكنت أحد الثلاثة الأوائل أبتعثت إلى مصر، وانتقلت إلى مجتمع حضاري، كنا نقرأ عن شوامخه ورجالاته وأحداثه وآثاره، عن بعد، وإذا بنا نكون فيها وبين أهلها، ودخلنا الجامعة. وبعد أن كانت تنتهي رؤيتنا لبنات حينا في مرحلة معينة؛ فإذا بنا نزامل الفتيات جنبًا إلى جنب في الفصل الدراسي، ويبدأ التنافس بين الطلاب والطالبات، ودخلنا المسرح والسينما والمكتبات والمحاضرات والأندية وصالونات كبار العلماء. تلك هزة قوية واجهناها، واستطاعت عقولنا ومشاعرنا أن تستوعب هذه النقلة الحضارية، ذلك لأنه بقراءتنا عن مصر في المدينة خفف من تلك الهزة.

وعلى الرغم من ذلك لم ننس المدينة المنورة، ولم ننس بنت المدينة، فقد تجمع أبناء المدينة في القاهرة، وكونا جمعية ندفع كل شهر جنيهًا مصرياً، وكان الجنيه آنذاك يساوي (١٢ ريالاً) سعوديًا، وعندما نعود في الصيف نستأجر منزلاً أو نستعين بمدرسة، ونبدأ في تدريس الأبناء المكملين، كما استعنا بزوجات الأساتذة المتعاقدين ليدرسن بنات المدينة، وبدأ تعليم المرأة من هذه الحركة. وعندما أنشئت الرئاسة العامة لتعليم البنات في عهد الملك فيصل – رحمه الله – انضمت المدرسة إلى الرئاسة، ولكن ليس باسم طلاب المدينة المبتعثين، ولكن باسم الأستاذ الأيوبي، إذ كنا قد استعنا به لإدارة المدرسة خلال العام الدراسي.

وقد اجتمعنا، وكنا نخبة من العائدين من القاهرة، وأصبحنا معيدين في جامعة الملك سعود، ومنها ابتعثنا إلى بريطانيا، إذ كنا لا ننظر إلى أبعد من ذلك، وعلى الرغم من أن العلاقة كانت مقطوعة مع بريطانيا وفرنسا بعد العدوان الثلاثي على مصر، إلا أن ذلك لم يمنع الحكومة البريطانية من السماح لنا لدخولها، بينما امتنعت فرنسا عن منحنا فيزا سياحية فقط، وهذا هو الفرق بين السياسة البريطانية والسياسية الفرنسية. وفي دراستنا في بريطانيا، وإضافة إلى أننا تعلمنا المنهج العلمي وطرائق البحث، فقد تعلمنا كذلك معنى المواطنة والإخلاص في العمل والمثابرة وحرية الرأي واحترام الآخر.

تعد سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م مرحلة مهمة في تاريخ كلية الآداب، إن لم يكن في تاريخ جامعة الرياض، إذ أن عودتنا نحن الجيل الأول غيّر وجه كلية الآداب التي كانت هامدة، لم يبعث منها خلال غيابنا إلا بضعة طلاب للدراسات العليا، في حين أن كلية العلوم وهي توأم كليتنا كانت

قد ابتعثت أكثر من ثلاثين طالبًا؛ والفضل في ذلك يعود، بعد الله، إلى الأستاذ الدكتور رضا عبيد. وشمرت النخبة العائدة عن سواعدها وبدأت نهضة الكلية بتولي السعوديين أمر قيادتها؛ ففي خلال عشر سنوات أمكن ابتعاث عشرات الطلاب من كل قسم، وأُنشئت أقسام الإعلام، والدراسات الاجتماعية والآثار والمتاحف، وجمعيتا التاريخ والآثار، والتراث الشعبي، وصدرت أول مجلة علمية محكّمة، هي مجلة كلية الآداب؛ وغير ذلك كثير، إضافة إلى النشاطات الطلابية والمنبرية، وإقامة الندوات العلمية العالمية، مثل: ندوة تاريخ الجزيرة العربية، التي أقيمت بعد عقد من الزمن، بعد عودتنا. ولعل أهم حدث في هذه الفترة، حدث لنا، هو لقاؤنا مع الفيصل، ومن هو الفيصل؟ إنه الملك، ذو العقلية الناضجة والنظرة الثاقبة، الذي قاد سفينة هذه البلاد في فترة من أخطر الفترات التاريخية التي مرت عليها ، وكان لقاءً أبويًا . دخلنا عرين الأسد، وكل منا يشعر بالفخر والاعتزاز؛ لأنه في حضرة الفيصل، ملك البلاد وعاهلها المبجل.

سلمنا عليه في مكتب صغير بعد صلاة العصر، التفت وتحدث بكلمات كان لها الوقع الحسن في نفس كل واحد منا، لقد قال الفيصل : أبنائي إن هذا الشعب أمانة في أعناقكم، كالعجينة تشكلونها كما تشاءون، فإن وجهتموه إلى الخير فهو خير تنعمون به، وإن وجهتموه إلى غير ذلك اصطليتم بناره. نطق أحدنا متسرعًا، قائلاً : نعاهدكم.. فلم يكمل الجملة، إلا والتفت إليه الملك قائلاً : عاهد نفسك، لا تعاهدني.

وخرجنا ونحن نشعر بثقل الأمانة التي ألقاها ملكنا على عاتقنا، ولم نفرط في الأمانة قط، في كل اتجاه نسير فيه. ذلك هو الفيصل، وتلك هي المسيرة مسيرة الخير والعطاء والعلم والمعرفة. ولعل الصورة التي بدأت بها حديثي، والمسافة التي قطعناها بين أجيال وأجيال، تجعلنا نحمد الله على ما وصلنا إليه من نعمة ورخاء وأمن وأمان.

رئيس هيئة التحرير